بــــــــوح

هاشم غـــرايبـــة*

منذ التفاحة الأولى يحدث ذلك!

قالت: «الطريق وُجدتْ للمشي عليها، لا للوصول إلى غايتكَ منها. إذا وصلتَ غابت الطريق، وتخلّى عنك الرفيق.»

بعد أن علّمتْني العيشَ مع الغموض، وقبولَ ما تجود به الطريق، غادرتْني.

وكنتُ أحدس بما سيحدث، وأعرف أننا سنفترق في تلك اللحظة التي نكون فيها مكتَّظيْن بالبوْح ولا نبوح!

ما دام الأمرُ يحدث كذلك منذ الأزل، فلا شك أنّي تعرّضتُ له، أو عَرَضَ لي وأنا في التاسعة من عمري. ولكنّي لا أتذكر تفاصيله، مع أنّي متأكّد أنّه حدث بالبداية ذاتها، والنهايةِ ذاتها، وعلى الطريقِ ذاته.

يحدث ذلك دائمًا في اللحظة الأخيرة. نَكْتشف أنّ ما نريده حقًّا وبقوة، وما يحقّق لنا السعادةَ، هو شيء يوشك أن يصير وراءنا، أو سيطير من بين أيدينا، ولا مناص.

بي رغبةٌ في أن أظلّ هائمًا في الطرقات حتى ارتفاع الشمس. عمري الآن تسعة وخمسون عامًا. هذه سنّ حرجة. لا أعرف بأيّ معنى أقول إنّها سن حرجة. شعرتُ بهذا الحرج في التاسعة عشرة، والتاسعة والعشرين، والتاسعة والثلاثين. في سن التاسعة والأربعين تتمنى لو تستطيع توقيفَ الزمن، لو تستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. رقم تسعة يزداد حرجُه، وتزداد حلاوتُه في فمي كلَّ دورة. فماذا عن حرج التاسعة والتسعين وحلاوتها؟

❖ ❖ ❖

أحسنُ الطريق أوّلُه، «وكلُّ مَنْ لا يَصْحب رفيقًا فهو ليس على بيّنةٍ من سلامة الطريق.» التقيتُ بها.

ـ أعرفك منذ الأزل!

(من أول نظرة، كانت تتولّد لدينا المزاعمُ نفسُها!)

كنتُ في التاسعة عشرة من عمري، وكانت إلى جانبي طوال السنة الدراسية. صبية تركمانية تتكلم اللهجةَ العراقيةَ بلكنة قومها، وكنتُ أتكلّم بلهجة حورانية ولكنة شامية. وكنّا كثيرًا ما نتحاور بتواطؤ مشترك، لتضليلِ مَنْ حولنا، وبلغة مرتبكة أوقعتْنا في سوءِ فهمٍ حميم.

كان قيظُ بغداد شديدًا تلك السنة. خرجنا من الامتحان الأخير معًا، ومشينا تحت الشمس اللاهبة. كانت أقدامُنا تكاد تترك أثرَها على الإسفلت لشدة الحر، لكنه كان بردًا وسلامًا.

شربنا ماءً من ساقية الحاجة عيوشة في العطيفية، واستَدَرْنا إلى باب المعظّم حيث شربنا لبن أربيل، ومشينا في شارع الرشيد وشربنا زبيبًا من عند الحاج زبالة، ووصلنا منطقة حافظ القاضي فدخلنا مطعمًا رخيصًا مكتظًا بالزبائن لا لنأكل بل لنُفْرغ ما شربناه. حشرنا جسديْنا على طاولة متواضعة، وتناولنا طبقَ تمن ومرق مع غرباء فظّين. ثم تابعنا المشي فرحيْن. عبرنا من تحت جسر الجمهورية إلى شارع أبي نواس، ووصلنا المسبح. ثم عدنا في الباص إلى مجمع الافتراق في الميدان. لكنّا لم نفترق، بل عدنا أدراجَنا إلى الشورجة، ثم إلى منطقة البنوك، وعبرنا سوق الصفافير باتجاه دجلة.

كنا نثرثر عن كل شيء، ونضطر إلى أن نشرح الكلمات التي نتبادلها في كثير من الأحيان؛ فأنا لم أتقن اللهجة البغدادية بعد. كنا نستعين باللهجة المصرية (لغةِ السينما المهيمنة آنذاك) لتقريب المفاهيم، ولتصحيح سوء الفهم. ولما حانت لحظة البوح بما اختزنتْه صحبةُ عامٍ كاملٍ من التآمر على رغباتنا، افترقْنا بصمت، وكأنّ الواحد منا نسي شيئًا في جيب الآخر. ابتعدنا واحدنا عن الآخر دون أن نأخذ

* ـ روائي وقاصّ من الأردن. صدرتْ له مؤخّرًا رواية عن دار الآداب بعنوان **الشهبندر**

ما نسينا، آملَيْن أنّ غدًا يومٌ آخر. لكنّ غدًا كان يومَ سفر، وعُدْتُ بعد العطلة الصيفية من عمّان إلى بغداد، فلم تكن الصبية في الكلية، ولم أكن أمتلك الحدسَ الكافي لأعرف أنّها هاجرتْ وأهلَها إلى خارج العراق.

❖ ❖ ❖

خافضة البصر أو رافعة، لا بد أن تلتقي العينُ بالعين مرةً. أربعُ عيون وكلُّ ما سواها عدم ابتسمتْ لي ابتسامةً عذبةً حنونةً وكأنّها تقول «فرصة طيبة » ابتسمتُ لها ابتسامة عريضة، لكنّي سرعان ما تراجعتُ. قلتُ لنفسي «ما هذا، سيلحظون هذا الخطَّ بينكما . يجب أن تحرص.» لم يدم هذا الخاطرُ طويلاً، وعُدْنا نحدّق إلى بعضنا، مؤكّدَيْن معرفةً وطيدةً وقديمة.

حين وصلنا قال الضابط : «كلٌ في مكانه، تنزلون واحدًا واحدًا!» كم كرهتُ مغادرة ناقلة السجناء على ما بها من عنت نزلتْ هي أولاً. تابعتُها، ثم سَرَحَ نظري عبر الباب في عينيها الزرقاوين

في التاسعة والعشرين كانت «الفرصة الطيبة» في المحكمة العسكرية في عمّان. كانت لها مشكلتُها، وكانت لي قضيتي. تبادلْنا تلك النظرةَ التي تزعم أننا نعرف بعضنا بعضًا منذ الأزل وكان سجنُ النساء ملحقًا بجناح خاصّ ملاصق لسجننا ثم تبادلنا الرسائلَ بلغة مرتبكة خوفًا من وقوع المعاني في أيدي الشرطة الذين كانوا ينقلونها ونتيجةً للعبارات المبتورة والجمل المرتبكة، وقعنا في سوء الفهم اللذيذ.

رائحة عبقة تنتشر في الروح، رائحة الحياة، من خلال نافذة الحافلة الضيقة: أَنظر إلى العالم الأرحب، عالم الحرية الفظّ وبدأتْ تتوارد الذكرياتُ والأطياف: السيارات. الناس.. الأصدقاء.. البيت. أُفيق فجأةً على صوت ينادي اسمي، فأعود أَتذكَّر فتاتي: فجأة، وكأنها غابت طويلاً سأعرف اسمَها بعد قليل

يفكّون القيد. أمشي إلى العنبر المخصَّص لنا في المستشفى عند يمين المدخل مكتبٌ يجلس خلفه شاويشٌ تَكدَّستْ أمامه عشراتُ الأضابير. وعلى يمين الشاويش خزانةٌ قديمةٌ مليئةٌ بأوراق غير مرتبة. يسارَ العنبر أقيمتْ مغسلةٌ قذرة، وعلى الحائط عُلّقتْ كلبشاتٌ معدنيةٌ لامعة على اليمين ستّةُ أسرَّة، وبجانب كل سرير صندوقٌ رمادي مستطيل هي جلستْ على أحد هذه الصناديق، وابتسمتْ لي بعذوبة فائقة ـ أو هكذا توهّمتُ قَطَعَ توجُّهي إليها تلك اليدُ التي امتدت لتمسك معصمي ولتقودني إلى مكتب الشاويش بعد أن سَجَّلَ اسمي ذهبتُ وجلستُ بجانبها، لكنّ الشاويش انزعج لجرأتي، فأمرني بأن أجلس في مكان آخر. احتجّت هي: «إنّه من أقاربي » لم يعجب الشاويشَ هذا الجوابُ، لكنّه رقّص شاربيْه ونقل بصرَه بيننا وبين السجّانة التي هزّت رأسَها موافقةً ثم اكتفى الشاويش بالتعليق: «شو؟ حابسين العيلة!»

يسحب إجابةً، والإجابةُ تمدّ خيوطًا من الملاحظة والاستفسار امتدّ خيطُ الكلام وتشعّب السؤال دار فينا العنبرُ الكئيب انفتحتْ قنواتٌ جديدة، وتقطَّعَ كلُّما بقي من خيوط الحذر والتحفظ لم تعترض الشرطية بل رمقتنا بنظرة حنان، بدت لنا مثلَ صديقةٍ في حفلة تنكرية عند لحظة البوح التي لا بدّ منها، نادى الشاويش اسمي: «عمرك . التهمة. مرضك؟..»

ولم أرها بعد ذلك!

❖ ❖ ❖

في التاسعة والثلاثين التقينا في موسكو أعرف قليلاً من الروسية، وتعرف قليلاً من العربية وانقضت ثلاثةُ أسابيع من الثرثرة، ومشينا تحت الثلج وفوق الثلج بسلام ودون توقف. ووقعنا في سوء تفاهمٍ أمتعَ من الفهم ذاته، وواجهنا فظاظةَ مَنْ حَوْلنا بالحديث عمّا لا نعرفه

جيّدًا، وبالقفز سريعًا عمّا نعرفه. وكنّا فرحيْن بالكشفِ عن هولِ ما لا نعرف. ركبنا إلى كل محطات المترو في موسكو، وسافرنا معًا إلى ليننغراد في القطار، وعدنا معًا وفي اليوم الأخير، ذهبتُ إليها لأبوح لها بما ينبغي أن أقوله منذ الأزل، فلم أجدها!

❖ ❖ ❖

في التاسعة والأربعين، التقينا في الجزائر. لهجتُها جزائرية على فرنسية، ولهجتي أردنية على إنجليزية. مشينا في الجزائر العاصمة تحت المطر، رغم تحذيرهم لنا من اللصوص. ومشينا على شاطئ البحر، رغم تحذيرهم لنا من الجماعات الإرهابية. وسافرنا إلى وهران، رغم تحذيرهم لنا من قطّاع الطرق الذين يخطفون الشقراوات ليساوموا عليهنّ

وكانت لدينا المزاعمُ ذاتُها، واللغةُ المرتبكةُ نفسُها، وسوءُ الفهم ذاتُه، وموعدٌ مع البوح كنتُ أدرك أنَّه لن يأتي؛ فقد صارت الحكايةُ أكثرَ وضوحًا، والتوقعاتُ أكثرَ صرامةً ودقةً.

❖ ❖ ❖

في التاسعة والخمسين، كبرتُ، وصرتُ أكثرَ إدراكًا لقوانين المشي على الطريق. التقيتُها على طريق عمّان ـ إربد شمالاً، فاتجهنا إلى مأدبا جنوبًا، ثم عدنا إلى الزرقاء، فالمفرق شرقًا لم نكن نعرف ما نريد، ولكنّا كنّا نثرثر طول الطريق. ثم سرنا في طرق زراعية لا نهاية لها، وعَبَرْنا قرًى متشابهةَ الفظاظة، وتابعنا إلى جرش فعجلون غربًا عند شفا الغور تعطّلت السيارة.. وبقينا على قارعة الطريق نثرثر:

ـ ما أحلى النهايات؛ إنَّها تحررنا من التزاماتنا...

ـ حتى الجميلة منها!

ـ وما أحلى البدايات؛ إنَّها تُوهمنا بتوقّعاتٍ أجمل من تلك التي تحققت.

ـ أو تلك التي ستتحقق!

ـ وما أحلى المشاريع التي تنتهي قبل أن تبدأ..

ـ ولكنها تظل متوهجة دائما!

❖ ❖ ❖

أعرف أنَّها ستُطلّ عليّ في اليوم الأخير، ونمشي معًا مشوارَنا الأخير، ونزعم المزاعمَ ذاتَها، ونتحايل على الفظاظة بالطريقة ذاتها، ونثرثر بلغات مختلفة، ويكون سوءُ فهمٍ متفقٌ عليه، ولا أبوح بما ينبغي أن أقولَه لها، ويظلّ ذلك البوحُ معلّقًا بيني وبينها، ليس يجفُّ، إلى الأبد

عمّان